قمَّة الرجال العشرة لطراد حمادة
السرُّ الخفيُّ لذاكرة المكان

الأسطورة ـ الرِّواية

«قمَّة الرجال العشرة» رواية صدرت مؤخَّراً للدكتور طراد حماده. يفهم من الإهداء الذي تبدأ به أن «الرجال العشرة» أسطورة، وأنَّهم «قضوا» في أعلى القمَّة ليس من الجوع والعطش، بل من صوت الحصى وصدى الريح، وهذا كتبوه في أعلى القمَّة على لوح الفضاء.

روت هذه الأسطورة ورد «الراوية»، وهي الجدَّة المفترضة لزوجة المؤلِّف، بوصفها جوهراً أنثوياً...، والجوهر الأنثوي يتجلَّى في كلِّ حين على مستويي العشق والرواية، مرَّة في شهرزاد، ومرة في ورد، وفي كلِّ المرَّات في امرأة تمتلك مفتاح السر.

يهدي المؤلِّف هذه الرِّواية لزوجته التي تكمل على لسان العشق سريان الأسطورة، ما يشير إلى هوية العاشقين اللذين يقصدان ورد، امرأة الحكايات، لتحكي لهما الحكاية.

التَّجريب: شكل متجدِّد

هل نقول: إنَّ هذه الرواية هي رواية أسطورة العشق؟ ما يعني تداخل نوعين قصصيين هما الأسطورة والرواية، أولهما: الأسطورة، قديم قدم الإنسان يجسِّد بلغة الخيال سعي الإنسان القديم، خارق القوى، إلى السيطرة على عالمه من طريق الحلم اليقظ المشبع بالخوارق، ويحكي ثانيهما سعى الإنسان العادي، الفرد، إلى تحقيق ذاته في عالم واقعي، فينجز هدفه أو يخفق.

ينتظم عنصر آخر في بناء هذه الرواية، وهو العنصر الفكري ـ الفلسفي. من نماذج حضور هذا العنصر نذكر، على سبيل المثال: «لم يكن، في موقد مالك، ما يشبه موقد ديكارت... لكن في ناره شبهاً شديداً بنيران حاتم الطائي... «تتصاعد من ناره» النار والدخان متحدين، ما يذكر باختلاط الخير والشر في فلسفة المعري.

كان ثمَّة شيء في تأمُّلاته يضاهي دهشة الإنسان الأوَّل في اكتشافه للنار «لعله جمع من مكان بعيد تأملات ديكارت وحكمة المعري. كانت بصيرته نفَّاذة، لكن علمه حضوري» (ص. ٥١ و٥٢).

إذا ما قرأنا في الرواية والنصوص الشعرية المتضمِّنة فيها، تبيَّنا العنصر الشعري بوصفه مكوِّناً آخر من مكوِّناتها، ينتظم والعناصر الأخرى في تشكيل بناء قصصي تكوِّنه هذه العناصر المتنوعة، ويمكن أن يعد تجريباً يضيف إلى الأشكال القصصية شكلاً جديداً ينطق برؤية جديدة. الواضح أنَّ هذا الشكل الجديد هو شكل متجدِّد ينتمي للقص العربي القديم متعدِّد الأنواع والأشكال، ويفيد من الأشكال القصصية الحديثة.

تبدأ الرِّواية بـ «كان يرى حقل النُّور الممتد إلى حدود الأفق صفحة مرآة لشمس وجهها، ويخاطبها في سره...». ثمَّ يأتي الخطاب لغة مجازية تمثِّل «جذبة العشق» فنسأل: من هو هذا العاشق؟ ومن هي هذه المعشوقة/العاشقة؟ ومن هما هذان العاشقان اللذان يمثلان أسطورة العشق الخالدة طوال الأزمان؟

يفهم من خاتمة خطاب العاشق أنَّ بدء حكايتهما هو تفتح للأسطورة، ونلاحظ أنَّ الحكاية... حكايتنا أضيفت إلى العناصر الأخرى آنفة الذكر، المكوِّنة للبناء القصصي... ونرى أنَّ بدء الحكاية يعني فتح أسطورة «قمَّة الرجال العشرة».

قد يكون لهذه القمَّة، وللأماكن الأخرى في الرواية، مثل «البركة الزرقاء» و«العين الزرقاء» وجود واقعي، لكنَّ الرؤية المركَّبة: الحكائية الأسطورية/ الرِّوائية/العرفانيَّة/الشِّعريَّة... تجعل هذا الوجود والمرجع الوقائعي وجوداً محتملاً يتمثَّل في تشكيل بناء مركب كنَّا قد ذكرنا مكوِّناته آنفاً.

الحكاية/الأسطورة وشخصيَّاتها

السؤال الذي يطرح هنا هو: ما هي الحكاية الأسطورة التي يقدِّمها الرَّاوي في هذه الرِّواية؟ والرَّاوي الذي يبدأ القص هو الراوي العليم الذي يعرف كل شيء، ويؤدِّي معرفته الشاملة بلغة مجازية في الغالب، ولا تخلو ألفاظ هذه اللغةمن معجم الفلاسفة العرفانيين اللغوي، ومن نماذج ذلك نذكر على سبيل المثال: «... ويجعل من الحصى بين أصابعه سبحة لأسماء، يتلو عليها ما تعاقب من الأحوال، ويطوي بها المنازل، يرقى مقامات روحه، ويتبع سلم الصعود، وينده على مقامات روحها (ص. ١٥).

يلتقي العاشقان، يجلسان على ضفاف السواقي الجارية من محيط «البركة الزرقاء»، ينسيهما حديث العشق تقدم ساعات النهار، فالكلام اللذيذ الذي يتبادلانه تنقل بين دروب المعارف وتعرُّجاتها... ويمضيان في درب البحث عن ذاكرة المكان، وفي هذه الذاكرة عن أسطورته، ويعقدان العزم على أن يبحثا عن السر الأخفى الذي لا تنحسر الحجب عنه بغير مفاتيح العشق.

تتمثَّل الشخصية الرئيسية، في هذا القسم من الرواية، بالعاشقين، ويتمثَّل هدفهما في معرفة السرِّ الأخفى لذاكرة المكان... يبدأ السعي إلى تحقيق الهدف بالتأمُّل والحوار، ثمَّ تقول هي: تأخذني إلى جدَّتي ورد نستمع إلى أقاصيصها، إنَّها راوية بامتياز، لم تكن هذه صفتها، لكن آلت إليها بفعل الزمان.

و «ورد»، كما يقدِّمها الرَّواي، عجوز، عيناها غائرتان من وطأة العمر، تبدوان نافذتين كبصيرة الزمان. ورد هذه هي من يقدِّم المعرفة، سرداً، أي معرفة متخيَّلة فنية، غير مباشرة، تقدِّمها امرأة جعلتها خبرة العيش «بصيرة الزمان» الكاشفة أسراره، ممثلة كشفها في أسطورة متجدِّدة يصنعها خيال متجدِّد.

فهل هي شهرزاد تتجدَّد؟ وهل يؤتي الزمان المعرفة به؟ الساعي إلى معرفة السر، نقلاً عن ورد...، يقول بعد لقائها: «حدَّثتني عن زوجها مالك...». ونتعرَّف إلى مالك، فإذا هو شخصية أسطورية، نذكر من صفاته، على سبيل المثال: «كان يطحن حبات الجوز واللوز تحت أضراسه... كان متعدِّد

المهارات: فلاحاً وراعياً وحطَّاباً يجيد السباحة والصيد وركوب الخيل. وكان كذلك عازفاً على قيثارته «كأنَّه الساحر»، وتقول ورد: إنَّ عزفه على القيثارة هو أولى مهاراته التي شدَّته إليها» (ص. ٢٨).

خدم مالك الذي نشأ يتيماً في فرقة الانكشارية، وبقي يحتفظ بسلاحه، كما يحتفظ بامرأته، جذبت قيثارته ورد إليه، كان حنوناً وقوياً، لم تنجب إلا بعد أن لامست حافة اليأس. فوضعت كوثر التي عاشت مدلَّلة سعيدة، وتزوجت باكراً من رجل على شاكلة أبيها امتهن التجارة، وأقام وإيَّاها في البلدة، وأنجبا أربعة صبيان وابنتين. كانت ورد تكثر من زيارة الأسرة السعيدة في حين كان مالك يكتفي بزيارتين في العام، وبسماع حكايات زوجته قائلاً: إنَّ الجبال متراسه الحصين ضد الموت.

تقرِّر ورد أن تبقى إلى جانب ابنتها... ويقرِّر مالك البقاء في مسكنه الجبلي، واعداً زوجته بالانتقال إلى البلد في الشتاء القادم. في وحدته يتحدَّث عن أحلامه بلغة مسجَّعة كأنَّها ترجيعات عشقه، أو أنشودة حاله، وقد حطَّت به الأحوال في مقام السفر.

تقابله، عند ملتقى السماء والأرض، قمَّة الرجال العشرة، فيشعر وهو وحيد في منزله كأنَّه حي بن يقظان في جزيرة المعارف. لم يبق معه سوى سلمان، وهو فتى ربَّاه بعد أن مات أبواه، فصار يرعى شؤونه بثقة ودراية، ويفعل ما يفعله برغبة المريد في التقليد، ويسأل ما يسأله سعياً إلى التعلُّم.

يقول مالك للرجال الباقين في الجبل، ومنهم سلمان: ترحلون، وأرحل، ألحق بكم بعد أيَّام، وكان قد بيَّت أمراً.

أمضى يومين وليلة وحيداً على جمر انتظاره. أبقى نفسه في حالة الحيرة ومقام الانتظار، ثمَّ جاءت قافلة، وفتح باب دارته للزائرين، كانوا تسعة رجال... باتوا ضيوفاً مكرَّمين، ولمَّا قالوا مؤثرين التلميح: إنَّهم اعتادوا أن يصطحبوا دليلاً في أسفارهم يحسبونه واحداً منهم، عرض أن يكون الدليل، فرحَّبوا، وغدا الرجال عشرة...

في ليلة الرحيل، يجفو النوم مالكاً، وتبدو أمامه مسالك كثيرة، ويروح في غيبوبة تأمُّلات وتداعيات...، وعندما يفيق يمسك ريشته الشعرية، ويكتب على جلد ماعز عتيق أسطورة الرجال العشرة كما حضرته من يقظة روحه. يكتب حكاية الحكايا لورد الرَّاوية... كتب لها أنَّ الرِّجال العشرة عازمون على الرحيل، أترك لخيالك الرحب الجميل سرد الرِّواية، تتناقل أخبارها الأجيال جيلاً بعد جيل.

البناء القصصي

يكتب مالك الجردي أسطورة الرجال العشرة العازمين على الرحيل إلى القمَّة. يكتب الرجال العشرة على لوحة فضاء القمَّة أنَّهم قضوا... تسرد ورد الرِّواية متخيَّلة تتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل. يأتي العاشق ويرويها في شكل قصصي متميِّز بلغتها المجازية المشبعة بالمعجم اللغوي الفلسفي ـ العرفاني.

البناء القصصي يتكوَّن من عناصر كثيرة متنوعة، يمثِّل نظام علاقتها شكلاً مبتكراً يمكن عدَّه تجلياً جديداً للمثاقفة بين القص العربي القديم والقص الحديث، وقد نهض هذا الشكل بأداء مهمته، فكشف سر ذاكرة المكان القائم بين السماء والأرض، والمسمَّى قمَّة الرجال العشرة.

وقد بدا واضحاً أنَّ هذه الرِّواية تتألَّف من وحدتين كبيرتين، تروي أولاهما سعي العاشقين إلى معرفة السر الأخفى لذاكرة المكان، وتروي ثانيتهما سعي مالك من مقام الانتظار إلى مقام السفر. وفي حكاية هذا السفر يتمثَّل السر الذي يبحث عنه العاشقان، فتلبِّي الحكاية الحاجة إلى المعرفة، ويؤدِّي القص في الوحدة الأولى الرَّاوي العليم الذي يتنحَّى أحياناً ليتيح للشخصية القول. أمَّا في الوحدة الثانية فيؤدِّي القص العاشق مسنداً روايته إلى ورد الرَّاوية، امرأة الحكايات، ليكسب روايته صدقية كأنَّه يعيد تقليداً من تقاليد القصِّ العربي المبتدئ عادةً بـ «حدَّثني».

❐❐❐